جدلية التفويض والتأويل بين المرابطين والموحدين
قراءة في المسار التاريخي

بقلم
د. عبد الرحيم موفق (*)

ملخص

تناولت هذه الدراسة جانبا من جوانب الصراع الفكري الذي دار بين الدولتين المرابطية والموحدية، ومدى ارتباطه بمسألة تأويل نصوص الصفات الخبرية، ذاك أن الموحدين أنكروا على المرابطين التزامهم بمنهج السلف في إثبات الصفات، ووصموهم بالتجسيم لاكتفائهم بالنص الظاهري دون تأويل للمتشابهات. وفي المقابل اعتبروا التأويل وإعمال العقل للوصول إلى مفهوم الألوهية أساس الإيمان، وكما حارب المرابطون علم الكلام فقد شن الموحدون حربا لا هوادة فيها على علم الفروع، وشحذوا جميع الطاقات لتشجيع العلوم التأصيلية وعلى رأسها علم أصول الدين، وهذا البحث يبتغي الكشف عن منطق الدولتين في تعاملهما مع مسألة المتشابه من نصوص الصفات، وتحديد الأسس المنهجية التي حكمت اختياراتهم العقدية.

الكلمات المفتاحية: التأويل؛ التفويض؛ التجسيم؛ المرابطون؛ الموحدون.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله خاتم الأنبياء والمرسلين، والمبعوث رحمة للعالمين.

(*) أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي، دكتوراه في الفقه وأصوله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس سايس. المغرب. mofoq7@yahoo.fr

أما بعد:

فقد اقتضت سنة التدافع الحضاري وضرورة المواجهة الفكرية أن تظهر الفرق الكلامية كنتيجة منطقية لتطور المجتمع الإسلامي وتلاقحه مع الشعوب والثقافات الأخرى، وبدأ كل اتجاه عقدي أو مذهبي يحاول أن يجد لنفسه المشروعية وأن يصحح ذاته عبر عرضها على القرآن الكريم والبحث في تأويل آياته وفق ما يناسب النسق الفكري الذي ارتضاه منظرو هذا الاتجاه أو ذاك.

ونظرا للترابط الوثيق بين المشرق والمغرب، فإن البيئة المغاربية لم تكن بمعزل عن هذا التجاذب الفكري والثقافي في علاقته بقضية تأويل المتشابه من آيات الصفات، ومن أبرز الحركات تأثيرا في الفكر الكلامي بالغرب الإسلامي الدعوة التي قادها زعيم الموحدين ابن تومرت الذي سمى أتباعه بالموحدين إمعانا في نقد خصومه، وتأكيدا لمصداقية دعوته، معتبرا أن التأويل وإعمال العقل للوصول إلى مفهوم الألوهية هو أساس الإيمان، وهو الذي يحقق مقصد التوحيد والتنزيه في حق الباري عز وجل، وفي المقابل أمعن في نقد خصومه السياسيين المرابطين واتهمهم بالتجسيم، لأنهم لا يؤمنون بالتأويل، ويمرون النصوص على ظاهرها.

فهل حقا كانت الدولة المرابطية دولة مجسمة مشبهة، أم هي مجرد دعوى لتحقيق هدف سياسي؟ وما هي الأسس المنهجية للخلاف بين منطق الدولتين في تعاملهم مع نصوص الصفات؟ هذه الأسئلة وغيرها يحاول هذا البحث قدر الإمكان الغوص في ثناياها، مفككا لجزئياتها، رابطا لأدلتها، للوصول إلى الجواب الشافي والمقنع، فعلى الله التوكل والاعتماد وذلك عبر المحاور التالية:

المبحث الأول: المرابطون ومرجعية السلف في إثبات آيات الصفات

المطلب الأول: المرابطون بين علم الكلام وعلم الفقه.

المطلب الثاني: التحقيق في دعوى انتساب المرابطين للتجسيم.

المطلب الثالث: الخطاب السلفي ورفض التأويل الكلامي

المبحث الثاني: تأويل الموحدين لآيات الصفات

المطلب الأول: موقف الموحدين من الخطاب السلفي الرافض للتأويل

المطلب الثاني: ابن تومرت نموذج في اتجاه التأويل العقدي.

المبحث الأول: المرابطون ومرجعية السلف في إثبات آيات الصفات

المطلب الأول: المرابطون بين علم الكلام وعلم الفقه.

أولا: نبذة موجزة من تاريخ الدولة المرابطية:

عاشت دولة المرابطين مابين سنتي (462- 541هـ) وأصل تسميتهم كلمة الرباط وتعني المكان المخصص لإقامة الحرس والجند. والمرابطة هي الملازمة والمحافظة على الثغور لحماية البلاد، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُم**﴾ [الأنفال: 60] وقد أسس الرباطات عبد الله بن ياسين [1]، كمراكز دينية تعج برهبان الليل وفرسان النهار، وشكلت أساس ومنطلق الدعوة المرابطية، وقد اعتبر جل المؤرخين أن عبد الله بن ياسين هو المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية.[2]

بنى ابن تاشفين مدينة مراكش عام(454 هـ) وفي عهده تم توحيد المغرب الأقصى والأوسط إلى مشارف إمارة بني حماد الزيريين، وعبر إلى الأندلس عندما استنجد به بعض أمرائها، فانتصر على ألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة (479هـ)، ثم عاد إليها في (481هـ) و(483هـ) . فأزاح ملوك الطوائف نتيجة تواصل انقسامهم، واستمرار الخطر النصراني، وألحق الأندلس بدولة المرابطين.[3]

لكن سلطة المرابطين ما لبثت أن اختلت في عهد ابنه علي بن يوسف(500-537هـ) بكل من المغرب والأندلس بسبب الانتفاضات المحلية والهزائم على أيدي النصارى، وبدأ أمر الموحدين بالظهور، وقد خلف الأمير علي بن يوسف ثلاثة أمراء من المرابطين واصلوا الصراع ضد الموحدين، حتى استولى هؤلاء على العاصمة مراكش، فقتلوا آخر الأمراء المرابطين إسحاق بن علي بن يوسف، وقضوا على دولة المرابطين سنة (541هـ).[4]

ثانيا: منافرة المرابطين لعلم الكلام

التزم المرابطون نهج السلف الرافض لعلم الكلام، وارتضوا التعامل مع نصوص العقيدة

بدون أنساق فكرية مسبقة، وذلك لخلو منطقة الغرب الإسلامي من الفرق الكلامية، وهو ما أشار إليه ابن حزم رحمه الله بقوله: "وأما علم الكلام، فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب."[5] لذلك كان العلم الذي يهتم بالعقيدة، تأويلا لظواهر بعض النصوص الشرعية يلقى معارضة من عموم أهل الأندلس والمغرب.

هذا الموقف السلبي من علم الكلام حدثنا عنه القاضي عياض في ترتيب المدارك "من أن أبا وهب عبد الأعلى بن وهب (ت:261هـ) كان قد طالع كتب المعتزلة، ونظر في كلام المتكلمين، وكان يحيى بن يحيى وابن حبيب وإبراهيم بن حسين بن عاصم يطعنون عليه بذلك أشد الطعن."[6]

وقد بلغت هذه النزعة غايتها في عهد يوسف بن تاشفين رحمه الله، حيث وجدت في طبيعة الثقافة المرابطية القائمة على الفقه ما يدعمها، كما وجدت في السلطة السياسية ما يعمل على تأكيدها، ويتخذ منها أسلوبا رسميا في الثقافة العامة. وصف المراكشي ذلك بقوله: "ولم يكن أحد من ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه- يقصد علم الكلام-"[7] والأمر نفسه نجده في العبر:"كان أهل المغرب على طريقة السلف، ينافرون الكلام وأهله."[8] ونتيجة لذلك أحرقت كتب علم الكلام، يقول المراكشي:"ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد، في أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنه شيء من كتبه. ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها."[9] ومن بين كتب الغزالي التي أحرقت، كتاب إحياء علوم الدين:حيث نظر فيه رجال الفقه، فرأوه محشوا بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين، ومذاهب الصوفية، فقرروا مجافاته

لظاهر الشريعة، وحذروا الناس من مطالعته والنظر فيه.[10]

ثالثا: ازدهار علم الفقه على عهد المرابطين.

من بين إفرازات هذا الموقف السلبي من علم الكلام، ازدهار علوم الفروع وخاصة علم الفقه، حيث أصبح للفقهاء مكانة خاصة في مجتمع المرابطين منذ وقت مبكر جدا، يقول الذهبي مبينا لهذه المكانة التي آل إليها الفقهاء: "وكان- يقصد علي ابن يوسف بن تاشفين- حسن السيرة جيد الطوية عادلا نزها، حتى كان إلى أن يعد من الزهاد المتبتلين أقرب وأدخل من أن يعد من الملوك. واشتد إيثاره لأهل العلم والدين وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورتهم. وكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمرا دون أن يكون بمحضر أربعة من أعيان الفقهاء، يشاورهم في ذلك الأمر، وإن صغر. فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما، ونفقت في زمانه كتب الفقه في مذهب مالك، وعمل بمقتضاها، وأنبذ وراءه ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي العلماء النظر في الكتاب والسنن."[11]

وفي نفس السياق نجد المؤرخ المراكشي يصف لنا حظوة الفقهاء زمن المرابطين، بقوله: "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين، ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك."[12]

لكن هذه المكانة المتميزة التي حظي بها الفقهاء، وما تنعموا به من أموال ومكاسب أسخطت عليهم كثيرا من الناس.[13]

وفي ذلك يقول ابن البني رحمه الله:[14]

أهل الرياء لبستم ناموسكـــم ❋ كالذئب أدلج في الظلام العاتـم
فملكتم الدنيا بمذهب مالـك ❋ وقسمتم الأموال بابن القاســم
وركبتم شهب الدواب بأشهب ❋ وبأصبغ صبغت لكم في العالـم.[15]

أما الأستاذ عبد الله كنون فيرى أن لقب الفقيه كثيرا ما كان يطلق على العالم بأي علم، فربما عنى المؤرخون الذين يتحدثون عن تقريب الدولة للفقهاء أنها قربت أهل العلم عامة واختصتهم بالرعاية.[16]

المطلب الثاني: التحقيق في دعوى انتساب المرابطين للتجسيم.

كانت أهم التهم الموجهة من ابن تومرت إلى المرابطين أنهم مجسمون، مشبهون للخالق بالمخلوق وينسبون إليه من الصفات ما ينسبون إلى البشر من السمع والبصر والحركة وما إلى ذلك، يجب جهادهم حتى ينفوا عنه التشبيه والشريك والنقائص والآفات والحدود والجهات ولا يجعلونه في مكان ولا في جهة، فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات. فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه، ومن جسمه جعله مخلوقا، ومن جعله مخلوقا فهو كعابد وثن، فمن مات على هذا فهو مخلد في النار.[17]

أولا: موقف المرابطين من التجسيم

لكي نتبين قرب أو بعد الدولة المرابطية من التجسيم، وباللزوم معرفة موقفهم من التأويل، سأحاول تبيان الأسس العقدية التي قامت عليها هذه الدولة، من خلال تلمس الفكر الذي تبناه مؤسسوها، ومن أبرز الشخصيات وأعظمها أثرا في تأسيس هذه الدولة أذكر:

❋ الشيخ أبو عمران الفاسي (ت430 هـ)[18]:

يجمع المؤرخون أن الشيخ أبا عمران الفاسي كان له إسهام في تأسيس دولة المرابطين،[19] ويعتبر شيخا غير مباشر للمؤسس الروحي للدولة عبد الله بن ياسين.[20] فهل كان هذا الشيخ مجسما كي نسم دولة المرابطين بالتجسيم؟

الحقيقة التي تشهد بها الكتب التي أرخت لهذا العالم أنه كان من أقطاب الفكر الأشعري في وقته،[21] وإليه انتهت رياسة المذهب المالكي بالغرب الإسلامي عموما، وبالقيروان خصوصا.

ومن بين آثاره التي وقفت عليها ولها صلة بموضوعنا، حكاية طريفة:فقد وقع أيام إقامته بالقيروان جدل حول مسألة: هل يعرف الكفار الله أولا يعرفونه؟ ففزعوا إليه ليفصل بينهم.فقال: "أرأيت لو لقيت رجلا، فقلت له: أتعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال: لك أعرفه. فقلت له صفه لي .فقال: هو رجل يبيع الحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة. أكان يعرفني؟ فقال: لا. فقال: لو لقيت آخر فقلت له: أتعرف الشيخ أبا عمران؟ فقال: نعم. فقلت له: صفه. فقال: هو رجل يدرس العلم، ويفتي الناس، ويسكن قرب الفسطاط. أكان

يعرفني؟ قال: نعم. قال: والأول؟ قال:لا. قال لهم الشيخ: فكذلك الكافر. إذ قال لمعبوده صاحبة وولد وأنه جسم وقصد بعبادته من هذه صفته فلم يعرف الله ولم يصفه بصفته، بخلاف المؤمن الذي يقول إن معبوده هو الله الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد. فهو قد عرف الله ووصفه بصفته وقصد بعبادته من يستحق الربوبية."[22]

هذه الحكاية تشهد بقوة على رفضه للتجسيم أو التشبيه للذات الإلهية، مما يعني أن المدرسة التي تتلمذ عليها أقطاب الدولة المرابطية لا علاقة لها بالتجسيم والتشبيه.

❋ عبد الله بن ياسين (ت: 451هـ):

تجمع كتب التراجم على وصف عبد الله بن ياسين باتباع السنة واجتناب البدعة والقوة في الحق، وهذه بعض الشواهد المؤكدة لذلك:

- قدمه أبو بكر اللمتوني لقومه قائلا "هذا حامل سنة الرسول عليه السلام"[23]
- سماه يحيى بن إبراهيم اللمتوني بإمام الحق.[24]
- الأساس الذي أنشأ عليه دولته كان هو الالتزام بالقرآن والسنة، يقول الذهبي:"وكان عبد الله يبث فيهم العلم والسنة، ويقرؤهم القرآن، فنشأ حوله جماعة فقهاء وصلحاء. وكان يعظهم ويخوفهم، ويذكر سيرة الصحابة وأخلاقهم وكثر الدين والخير في أهل الصحراء."[25]

وخلاصة القول في مذهب ابن ياسين، أن نزعته إلى علم الفقه والدين، كانت أقوى منها إلى أي علم آخر، وكان على جادة السنة، لم يحد عنها، عاملا على إحيائها، مالكي المذهب، متمسكا بمذهبه حريصا عليه كل الحرص. ولم يكن إلا فقيها من هؤلاء الذين ترسموا خطى إمامهم مالك، وغيره من أهل السنة، في إثبات الصفات لله عز وجل، وعزوفهم عن التأويل، واشتغاله عن الخوض في بحر خضم هو بحر علم الكلام والفلسفة.[26]

❋ يوسف ابن تاشفين:

يعتبر ابن تاشفين المؤسس الفعلي للدولة، وفي عهده بلغت أوج قوتها وانتشارها، وهذه بعض الشواهد الدالة على مكانته:

وصفه ابن خلدون قائلا:" كان من أهل الخير والإقتداء. نزعت به همته إلى الدخول في

طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه، فخاطب المستظهر العباسي، وأوفد عليه بيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك. فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته، وخاطبه فيه يا أمير المسلمين تشريفا واختصاصا فاتخذها لقبا ...لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين و اتباع السنة."[27]

ويقول عنه عبد الله كنون: "توج يوسف حياته بتاج الصدق والإخلاص، فأعلن انضوائه تحت لواء الخلافة الإسلامية ببغداد، وكان رسوله إلى الخليفة الفقيه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور."[28] فهل كان هذا الإمام يقبل رسالته لو كان مجسما؟

فإذا جاوز المرابطون الحدود التي رسمتها السنة، وما أجمع عليه أهل المذاهب، وإذا صح ما نسبه ابن تومرت إلى المرابطين، فلم اتصل عالم جليل كالغزالي بيوسف ابن تاشفين، وبارك جهاده، وسعى له عند خلفاء بني العباس حتى اعترفوا بشرعية حكمه، وأعجب به وبجهاده في سبيل إحياء الدين؟ وعلى افتراض أن أتباعه مجسمة كفرة، أكان الغزالي يبارك حركتهم وينظر إليها على أنها تحقيق للأهداف السامية التي كان يسعى إلى تحقيقها من إحياء الإسلام الصحيح.[29]

بعد هذه الجولة مع هؤلاء الأعلام، يتبين أن المرابطين التزموا منهج السلف في العقيدة، هذا المنهج الذي كان يقتضي الإيمان بالصفات الإلهية، مع عدم الخوض في كيفيتها، وترك المراد بها إلى الله تعالى، مع تنزيهه تعالى عن التشبيه والتجسيم والمماثلة والتعطيل.

المطلب الثالث: الخطاب السلفي ورفض التأويل الكلامي

لقد تبين من خلال المطلب السابق أن الدولة المرابطية كانت مالكية المذهب، والأكيد أنها كما التزمت مذهب مالك الفقهي فكذلك تبنت مذهبه العقدي. فما هو المذهب العقدي للسلف عموما، ولمالك خصوصا في تعامله مع نصوص الصفات؟

أولا: موقف السلف من التأويل

لقد شكلت مدرسة السلف[30] مرجعية نصية تعنى بتأويل القرآن بالقرآن، أو تأويل القرآن

بالسنة، وإلا كان ذلك التأويل عن طريق أقوال الصحابة والتابعين، ومن ثم لم يحظ التأويل عندهم إلا بالقدر اليسير يكاد يكون غير ذي بال، خشية أن يقعوا في شبهة التجسيم والتشبيه من حيث لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، مفوضين أمرهم إلى النص، والتسليم بما فسره السلف الصالح من الصحابة، وهو الذي رجحه الأئمة من التابعين، الذين أرجعوا أمرهم إلى التفويض، ورد الأخبار المتواترة إلى أصحابها بدون زيادة، أو نقصان، أو تحريف، أو تأويل.

وهذه بعض النماذج التي تبين لنا هذه الحقيقة:

– قال محمد بن الحسن رحمه الله [31]:" اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن، والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير، ولا وصف، ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئا من ذلك، فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا."[32]

– وقال حافظ المغرب ابن عبد البر:"ما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر. ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا نتعدى ذلك إلى تشبيه أو قياس أو تمثيل أو تنظير فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير... أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة. وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئا منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود. والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة والحمد لله."[33]

– وقال ابن تيمية :" فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفيا وإثباتا. فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه. وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات، من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.."[34]

والنصوص عن السلف في هذا المجال كثيرة متواترة لا مجال لجمعها، وإنما ذكرت إشارات وإلماحات لما عليه السلف من الاعتقاد في الصفات. فهم لا يخوضون في النصوص المتشابهة، ولا يؤولونها، وإنما يؤمنون بها كما جاءت، مع تنزيهه تعالى عن الكيفية والمماثلة.

ومما سبق يمكن القول أن منهج السلف قائم على اعتبارات عدة أهمها:

- أعرف الناس بكلام رسول الله ﷺ ومعانيه شاهدوا الوحي والتنزيل ومعاصروه وصاحبوه. من هنا تأتي ضرورة إتباع الصحابة والتابعين وأئمة المجتهدين، فهم القدوة الفاضلة لأفراد الأمة.

- لا يوجد ما يثبت أنهم دعوا الخلق إلى البحث والتعمق والتفسير والتأويل في المتشابه، وإنما الثابت أنهم زجروا من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به.

- إعطاء الأولوية للنص على العقل، يشكل أحد المسلمات التي نهجها السلف، وهو المنهج الذي ينتهي إلى التسليم بظاهر النص مخافة التأويل،[35] امتثالا لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران/105].

بعد تبيان موقف السلف من الصفات عموما سأنتقل للحديث عن علم من أعلام مذهب السلف، الأمر يتعلق بإمام دار الهجرة مالك بن أنس- رحمه الله- الذي شكل نبراسا للمرابطين في فقهه وعقيدته.

ثالثا: الإمام مالك وموقفه من التأويل.

سبق أن فندت في المبحث السابق تهمة التجسيم التي رُمي بها المرابطون، ووصلت إلى تقرير أنهم كانوا على منهج السلف في الإيمان بنصوص الصفات وعدم الخوض في معانيها، مع التنزيه طبعا. ثم بينت موقف السلف من النصوص المتشابهة بشكل عام، وفي هذا المحور سأتطرق للحديث عن موقف الإمام مالك من نصوص الصفات باعتباره كان نبراسا للمرابطين في فقهه وعقيدته.

كان الإمام مالك شديد التمسك بالقرآن والسنة، يوصد باب الرأي وكل ما يؤدي إلى الجدل ويعتبره بدعة. وصفه الإمام ابن تيمية رحمه الله بقوله:" فرضي الله عن الإمام مالك

ابن أنس، حيث قال: أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد لجدل هؤلاء."[36] لقد اتخذ من الواقع العملي دليله إلى الفقه، فلا فروض ولا جدل، وهي نزعة عملية توشك أن تجعل "مالكاً" من أصحاب فلسفة الذرائع أو "البراجماتزم" كما يقول الأستاذ علي سامي النشار.[37]

وهكذا سار الإمام مالك على السنة في دراسته للعقيدة، كما سار عليها في دراسته للفقه، فكان يدعو الناس إلى أخذ العقيدة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ لا من حكم العقل المجرد. وإن لم يكن في الشرع، لا في أصوله ولا في فروعه، شيء يخالف العقل، فالأولوية عند مالك للنص المنزل. ونسب إليه قوله:"ما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء"[38] وهذا النص شاهد على شدة تمسكه بالنقل.

كما عرف بكراهته للحديث في ما ليس تحته عمل، وقد أثر عنه قوله :" الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل. فأما الكلام في الدين وفي الله عز وجل فالسكوت أحب إلي، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين، إلا ما تحته عمل."[39]

علق الإمام ابن عبد البر على هذا النص، قائلا: "قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل مباح عنده، وعند أهل بلده. يعني العلماء منهم – وأخبر أن الكلام في الدين نحو القول في صفات الله وأسمائه مكروه، وضرب مثلا نحو رأي جهم والقدر... قال: والذي قاله مالك عليه جماعة الفقهاء قديما وحديثا من أهل الحديث والفتوى وإنما خالف في ذلك أهل البدع، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع في درء الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه وخشي ضلالة عامة أو نحو هذا."[40]

أما بالنسبة لموقفه من الآيات المتشابهات، فقد عرف بحرصه على التنزيه، ونفوره من التأويل، ويطلب إمرار النصوص كما جاءت. ويقول:"إنما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون"[41] ولعل أشهر أثر يبين لنا موقف الإمام من التأويل ما أجاب به السائل عن الاستواء في قوله عز وجل: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه/5][42]

فجوابه يبين لنا بجلاء رفضه التام للخوض في نصوص الصفات، أو تفسيرها، فبالأحرى تأويلها. ومنهجه قائم على الإيمان بها كما جاءت، وترك المقصود بها على الكيفية التي أرادها الله تعالى .يقول الشهرستاني: "وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا تهدفوا للتشبيه فمنهم :مالك بن أنس رضي الله عنهما إذ قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"[43]

المبحث الثاني : تأويل الموحدين لآيات الصفات

المطلب الأول: موقف الموحدين من الخطاب السلفي الرافض للتأويل

أولا: نبذة موجزة من تاريخ الدولة الموحدية (541-668هـ)

أظهر محمد بن تومرت[44] معارضته للمرابطين بمراكش سنة (514 هـ)، فطرده الأمير علي بن يوسف منها، ثم انتقل إلى جبل درن جنوب المغرب الأقصى، حيث أعلن دعوته سنة(515 هـ)، مدعيًا أنه المهدي المنتظر، وأن نسبه يتصل برسول الله ﷺ، وفي هذه السنة، هزم حملة مرابطية جاءت تطلبه في إجليز، ثم اتخذ سنة (518هـ)، مدينة تنملل قاعدة له.[45]

وفي سنة(524هـ) شن حملة فاشلة على مراكش، وفيها توفي. فبايع أتباعه ملازمه وقائده عبد المؤمن بن علي (524-541هـ) فتلقب بالخليفة أمير المؤمنين، وواصل الصراع مستفيدًا من تفاقم مصاعب الدولة المرابطية، فاستولى على وهران وفاس ثم مراكش سنة (541هـ)، كما عبر إلى الأندلس في السنة نفسها، فاستولى على إشبيليا وقرطبة ثم على غرناطة. وفي سنة (546هـ) بدأ في التوسع شرقًا باتجاه إمارة بني حماد، وكان أمرها في تراجع والنورمنديون يطرقون سواحلها، فاستولى على بجاية وعنابة وقسنطينة ثم سطيف. وفي سنة(554هـ)، توجه إلى إفريقية تونس برًا وبحرًا، فأخضعها وحاصر المهدية حتى استسلم من كان بها من النورمنديين صلحًا سنة (555هـ)، وبذلك وحد بلاد المغرب العربي من جناحه الغربي، وأصبحت العاصمة مراكش من عواصم العالم الإسلامي الكبرى.[46]

مرت دولة الموحدين بفترة قوة تواصلت إلى آخر عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور(580-595هـ)، ثم مالبث أن اضطرب الوضع السياسي بها منذ بداية القرن السابع

الهجري بداية القرن الثالث عشر الميلادي بتدخل بني غانية وهزيمة الخليفة الناصر في موقعة العقاب بالأندلس أمام النصارى سنة (609هـ)، والصراع على الحكم بين أمراء الموحدين. فاختل الأمر بالمغرب والأندلس وضعفت سلطة الخلفاء بمراكش، وقوي نفوذ الولاة والقبائل بالجهات، ومالت الدولة إلى الانحلال. فانفصل بنو هود وبنو الأحمر بالأندلس، ووالى النصارى هجماتهم واستولوا على مدنها وحصونها، كما استقل بنو حفص بإفريقية تونس سنة (634هـ)، وبنو عبد الواد بالمغرب الأوسط سنة (633هـ)، واستفحل أمر بني مرين بالمغرب الأقصى حتى استولوا على مراكش سنة (668هـ)، ثم تنملل سنة(674 هـ).[47]

ظهر الموحدون في فترة بلغت فيها البيئة العربية الإسلامية بالغرب الإسلامي مستوى النضج الثقافي والفكري، فأخذ التفسير منحى آخر، ولم يجد المفسرون غير أن يجتهدوا ويوظفوا العقل والقياس والتفسير بالرأي. كما يعتبر عصرهم العصر الذي اعتمد فيه على التوحيد في نشر الإسلام والعقيدة، واستعمال العقل كوسيلة للتأويل، واستنباط الأحكام والآراء.

ثانيا: رفض الموحدين للخطاب السلفي القائم على التفويض.

أقام الموحدون نسقا فكريا تأصيليا عمدته الكتاب والسنة، وتلقين علم العقيدة للجميع بما فيهم الأمراء، يقول ابن عذارى عن أحد أمرائهم:"ونشأ أبو عبد الله أحسن منشأ على الطهارة الدينية، وتلاوة كتاب الله تعالى، مع العقائد المهدية، وعرض الموطأ في المجلس السامي بمحضر أمير المؤمنين عبد المؤمن وعلية الناس."[48]

والعمل بالكتاب والسنة نجده وصية المنصور رحمه الله (ت:595هـ) في موته:"ويؤكد عليهم التزام ما كانوا عليه من طاعته، والعمل في ذلك كله بكتاب الله وسنة نبيه، والوفاء بعهوده ومواثيقه."[49]

ومن نتائج هذه النزعة التأصيلية ازدهار علم أصول الدين، يقول ابن تومرت: "إن التوحيد هو أساس الدين الذي بني عليه، وإن فروعه إنما تثبت بعد العلم بثبوته."[50] أما السبيل إلى إثبات علم التوحيد فهو العقل"بضرورة العقل يعلم توحيده سبحانه."[51] وهكذا أصبح هذا العلم هو سمة الدولة، يقول الذهبي:"وتسمى المصامدة الموحدين لأجل خوض

ابن تومرت بهم في علم الاعتقاد."[52]

والأمر ذاته يؤكده الأستاذ عبد الله كنون-رحمه الله-:" كان الموحدون يعتبرون من لا يعرف العقائد على سبيل التفصيل، وعلى طريقة الأشعري بالأخص يعتبرونه كافرا ليس له من الإسلام إلا الاسم. ومن ثم سموا أنفسهم بالموحدين ونبزوا المرابطين خصومهم بالمجسمين، وألف المهدي لأصحابه عقائد مختصرة باللسانين العربي والبربري فتأثروا بخطاه، وصنفوا في هذا العلم كتبا عديدة."[53]

لقد دعى ابن تومرت إلى وحدانية الله تعالى، ورفض أي إمكانية تشابه بين الخالق والمخلوق. إن قناعته بأن الطريق المستقيم هو طريق التأويل والتوحيد دفعته إلى تكفير من اعتبرهم مجسمين. لاكتفائهم بالنص الظاهري دون تأويل للمتشابهات. في المقابل اعتبر التأويل وإعمال العقل للوصول إلى مفهوم الألوهية أساس الإيمان، وبالتالي وجب على الجميع التقيد به بمن في ذلك البربر الذين لا زالوا على الفطرة، وهكذا حمل على المرابطين مسؤولية انتشار التشبيه في بلادهم،ولذلك قام لمحاربتهم.[54]

ثالثا: موقف الموحدين من كتب الفروع

نتيجة للدعوة التي قام بها ابن تومرت، القائمة على "العمل بالكتاب والسنة ومقاومة الفروع المالكية وتغيير المنكر."[55] عمد الموحدون إلى تحريق كتب الفروع، ويرى الناصري أن أول من قام بذلك هو:"عبد المؤمن بن علي الكومي الذي أمر بتحريق كتب الفروع، ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة."[56] في حين نجد في المعجب أن أول من قام بذلك هو يعقوب المنصور، يقول:"وأمر- يقصد يعقوب المنصور- بتحريق جميع كتب الفروع، ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها."[57] وإذا تركنا جانبا مسألة الأسبقية في القيام بذلك، فالذي يمكن الاطمئنان إليه هو أن القضاء على كتب الفروع شكل مسألة هيكلية أساسية في الفكر الموحدي. فما من أمير إلا وله نصيب في ذلك.

وإذا كان المرابطون قد اشتهروا بتحريق كتب علم الكلام، وخاصة كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي. ففي المقابل نجد الدولة الموحدية وبكل أطيافها السياسية قد شنت حربا لا

هوادة فيها على كتب الفروع الفقهية، فها هو عبد المؤمن يأمر ب:"تحريق كتب الفروع، ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث، واستنباط الأحكام منه، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الأندلس والعدوة."[58]

ويرى المرحوم عبد الله كنون أن ما فعله المنصور من تحريق كتب الفروع، كان ذا فائدة جلية، حيث جعل الناس يقللون من الإنكباب على النظر في علم الفروع المجرد، وينصرفون إلى دراسة الفقه في أصليه العظيمين أعني الكتاب والسنة. فظهر الاشتغال بعلم التفسير وعكف الناس على تفهم كلام الله عز وجل ودراسته دراسة علمية صحيحة، ونبغ المفسرون العديدون مثل عبد الجليل القصيري، وغيره. كما انتشر علم الحديث رواية ودراية، وأقبل الناس على الأخذ عن رجاله والتأليف في فنونه المختلفة. وكان الأخوان أبو الخطاب وأبو عمرو ابنا دحية السبتيان وابن القطان الفاسي ومحمد بن قاسم التميمي من ألمع محدثي هذا العصر."[59]

فالفقه المالكي في هذا العصر قد استفاد من هذه المعركة التلقيح بمادة الحياة الأصلية بالنسبة إلى كل المذاهب الإسلامية وهي الرجوع إلى الكتاب والسنة. فلم يبق ذلك الفقه الذي يقارن أقوال أئمة المذاهب بعضها ببعض، ويرجعها في النهاية إلى رواية أبي القاسم عن الإمام مالك. بل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي، وبذلك أخذ خير ما في الدعوة المعارضة له وأحرز كيانه.[60]

المطلب الثاني: ابن تومرت نموذج في اتجاه التأويل العقدي.

إن البحث في التوجه العقدي لابن تومرت ليس بالأمر الهين، لأنه كان مزيجا لعديد من الرؤى، ولم يلتزم مذهبا معينا، فابن تومرت لا يتميز بوحدة مذهبية، وإنما آراؤه مأخوذة من مختلف المذاهب. وهذا ما أكده العديد من المؤَرخين كالمراكشي والذهبي وابن خلدون وغيرهم، لكن رغم ذلك تظل السمة الأشعرية هي الغالبة على آرائه، باعتباره تتلمذ على يد كبار أعلام الأشاعرة في المشرق الإسلامي، كإلكيا الهراسي والطرطوشي والغزالي.

هذا الاختلاف في تحديد مذهب ابن تومرت العقدي ينعكس أيضا على موقفه من مسألة الصفات:

– فمن المؤرخين من يرى أنه يوافق المعتزلة في نفي الصفات، وأنها عين الذات يقول المراكشي: "وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا أنه في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها و في مسائل قليلة غيرها."[61] ويقول ابن خلدون في نفس السياق: "اتسعت عليهم الدنيا، وابن تومرت في ذلك كله لون واحد من الزهد والتقلل والعبادة وإقامة السنن والشعائر لولا ما أفسد القضية بالقول بنفي الصفات كالمعتزلة."[62]

– في حين نجد روايات أخرى تبرئه من تهمة الاعتزال، فدعوته لم تكن قائمة على أساس معتزلي بل تمثل اختيار متأخري الأشاعرة، كالجويني والغزالي ومن جاء بعدهم. وصف ابن صاحب الصلاة مذهبه، قائلا: " كان المهدي على رأي الأشعرية في أكثر مسائل الاعتقاد، فقد كان يعتمد القول بتأويل المتشابه من القرآن والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب مقتدين بالسلف في ترك التأويل، وإقرار المتشابهات كما جاءت. ومن أجل هذا كان يسمي أصحابه بالموحدين تعريضا باللمتونيين في أخذهم بالعدول عن التأويل، وميلهم في نظره إلى التجسيم، ولهذا كان يرى أن في نسبة الصفات إلى الله شبهة إشراك غيره معه، هذا إلى قوله بعصمة الإمام."[63]

وها هو ابن السبكي يبرئه من تهمة الاعتزال في موضع آخر من كتابه الطبقات "فأما دعواه أن ابن تومرت كان معتزليا فلم يصح عندنا ذلك، والأغلب أنه كان أشعريا صحيح العقيدة."[64]

هذا التوجه الأشعري في التعامل مع نصوص الصفات، أكده عبد الله كنون بقوله: "دعا إلى التوحيد على طريقة الأشاعرة من تأويل المتشابهات وعدم إقرارها على ظاهرها فرارا من الوقوع في التجسيم."[65]

بعد هذه الشواهد المختلفة، ما الذي يمكن الاطمئنان إليه بخصوص موقف ابن تومرت من مسألة الصفات عموما، وقضية التأويل خصوصا؟ وهذا ما لا يمكن تحصيله إلا بالرجوع إلى كتب ابن تومرت نفسها.

من خلال التدقيق في كتب ابن تومرت خاصة أعز ما يطلب يتبين أنه لا يوافق الأشاعرة

في تصورهم للصفات على أنها معان قديمة قائمة بذاته تعالى، كما لا يوافق المعتزلة في تصورهم لها على أنها عين الذات. ويقرر أن الصفات هي أسماء الله تعالى التي وصف بها نفسه وهي موقوفة على كمالاته وينبغي أن تفهم على أنها استحالات للنقائص، فإذا علم انفراده بوحدانيته على ما وجب له من عزته وجلاله علم استحالة النقائص عليه لوجوب كونه خالقا حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما من غير توهم تكليف.[66]

وقد لخص د: النجار مذهب ابن تومرت في الصفات في ثلاثة عناصر :

- الإيمان باتصاف الله تعالى بصفات الكمال.
- رفض الخوض في الكيفية التي يكون بها ذلك الاتصاف.
- التعبير عن ذلك بأسماء الله تعالى الحسنى على سبيل الوقف.[67]

أما عن كيفية تعامله مع النصوص المتشابهة، فيلاحظ أنه أقرب ما يكون من مذهب السلف، فالمتشابه من نصوص القرآن والسنة التي توهم التشبيه والتكييف مثل آيات الاستواء وما شابهها، وحديث النزول وما إلى ذلك من النصوص المتشابهات يجب الإيمان بها كما وردت مع نفي التشبيه والتكييف.[68]

وعقد فصلا خاصا لنفي التشبيه بين الخالق والمخلوق، جاء فيه:"موجود على الإطلاق من غير تشبيه، ولا تكييف لو اجتمع العقلاء بأجمعهم على أن يكيفوا بصر المخلوق أو سمعه أو بصره لم يقدروا على ذلك مع أنه مخلوق. فإذا عجزوا عن تكييف ما هو مخلوق فعن تكييف من لا يجانسه مخلوق، ولا يقاس على معقول أعجز، ليس له مثل يقاس عليه هو، كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ لا يلحقه الوهم، ولا يكيفه العقل، ولذلك قال المصطفى ﷺ:"لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك."[69] تنبيها على نفي التشبيه واعترافا للغني الحميد بالجلال والعظمة."[70]

وفي موضع آخر يعتبر أن ما ورد من المتشابهات التي توهم التشبيه، والتكييف كآية الاستواء، وحديث النزول، وغير ذلك من المتشابهات، يجب الإيمان بها كما جاءت مع نفي التشبيه والتكييف.[71]

وسبب هذا التوقف في المتشابهات، هو عجز العقول على إدراكها، يقول:" للعقول حد تقف عنده لا تتعداه، وهو العجز عن التكييف ليس وراءه مجال وملتمس إلا التجسيم والتعطيل، وذلك محال وكل ما يؤدي إلى المحال فهو محال لشهادة الأفعال على وجود خالق انفرد بالاقتدار، وما ورد من المتشابهات التي توهم التشبيه في الشرع يجب الإيمان بها كما جاءت مع نفي التشبيه والتكييف، لا يتبع المتشابهات في الشرع إلا من في قلبه زيغ كما قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ [آل عمران/ 7] أخبر تعالى أن الزائغين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فذمهم بذلك وأخبر تعالى أن الراسخين في العلم يقولون : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا فأثنى عليهم بذلك وحذر رسوله من الذين يتبعون ما تشابه منه. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية هو الذي فقال رسول الله ﷺ" فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم ."[72]

إذا بعد هذا القول الصريح في اتباع منهج السلف في النصوص المتشابهات والاستدلال بنفس أدلتهم هل يمكن القول أن ابن تومرت كان ينفر من التأويل على عكس ما ذهبت لذلك الروايات المختلفة التي نقلت عنه.؟

هذا الموقف غير الواضح من مسألة التأويل، هو الذي جعل بعض الباحثين يشككون من إدخال ابن تومرت لمنهج التأويل إلى المغرب، ويسمونه بالتناقض، يقول د: عبد المجيد عمر النجار " كان فيها – يقصد مسألة التأويل- متضاربا بين قوله النظري وبينما جرى عليه تفكيره، فبينما نرى تقريراته لتنزيه الذات الإلهية تنزيها مطلقا في المرشدة يجري على التأويل الكامل، وينفي كل ما عسى أن يلحق شبها بالمخلوقات. نراه يقول في الصفات الخبرية: ما ورد من المتشابهات التي توهم التشبيه والتكييف، كآية الاستواء وحديث النزول وغير ذلك من المتشابهات في الشرع. يجب الإيمان بها كما جاءت مع نفي التشبيه والتكييف، وهذا القول يتفق مع تفويض السلفية ويخالف تأويل الأشاعرة."[73]

حقيقة أن ابن تومرت كان ينفر من التأويل، لكن بالنسبة لفئة خاصة وهي فئة العوام. في

حين أنه كان يجيزه لنوع خاص من المسترشدين الذين يسألون عن الحكم والدليل، وذلك لأن المسترشد لن يقنع بالوقوف على الدلالات الظاهرة للألفاظ، وقد يوقعه حرصه على البحث عن الدليل والبرهان في التجسيم والتعطيل لهذا يصبح التأويل هنا ضرورة ملحة، ومن الضرورات القوية لدى ابن تومرت للتأويل أن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم تفتح الباب أمام كثير من التأويل ففيها "التشبيه والاستعارة، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ووصف ما لا يعقل بصفة من يعقل، وتسمية الشيء بمعظمه، وتسمية الشيء بما يقارنه، وتسمية الشيء بما يشاركه، وتسمية الشيء باسم يخالفه، وتسميته باسم بما يناقضه وتسمية الجملة باسم البعض، وتسمية المعاني باسم الأشخاص."[74]

وكل هذه الأمور توجب العلم بلغة العرب، على من يأخذ نفسه بالتأويل، وهؤلاء عند ابن تومرت يمثلون أصحاب منهج خاص في الاستدلال، اتجهوا إلى الشريعة باعتبارها المصدر المشترك لكل أنواع الاستدلال، وحاول هؤلاء أن يخرجوا الألفاظ من دلالتها الظاهرة إلى دلالتها المجازية من غير أن يخلوا في هذا بعبارة لسان العرب، وأن أصحاب التأويل يلجئون أيضا إلى القياس العقلي، وهذا أيضا له شروطه ومواصفاته: كعدم قياس دائرة الوجوب على دائرة الجائز أو دائرة المستحيل."[75]

كما نبه أن هناك كثيرا من الألفاظ اللغوية كان لها معنى لغوي وانتقلت إلى الشرع فاتخذت معنى آخر، و أولها العرف الشرعي تأويلا آخر، وثبتت على هذا التأويل، ومثل هذا التأويل مشروع، ولا غبار عليه. ومن ذلك أن أصل العدل في اللغة الميل. ثم قصره الشرع على الذي مال عن الباطل إلى الحق، وعن الشر إلى الخير، وأصل الصلاة في اللغة الدعاء فقصرها الشرع على هذه الأفعال المعهودة المحدودة من ركوع وسجود وقيام وقعود، وأصل الصيام في اللغة الإمساك فقصره الشرع على الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في وقت معلوم وزمن مخصوص.[76]

الخاتمة:

في ختام هذا البحث، وبعد معالجة أسباب الخلاف بين الدولتين، يتبين أن ذلك التباين قام على أساس تلك الثنائية في التعامل مع الصفات الخبرية، وفق منهجين:

- منهج السلف يقتضي التنزيه مع التفويض، وهو الذي أسست عليه دولة المرابطين.
- والمنهج الثاني هو الذي ارتضته الدولة المنافسة - دولة الموحدين- أي تأويل نصوص الصفات الخبرية مع ما يتناسب وتنزيه الباري عز وجل.

وفي ثنايا البحث بينت أن زعيم الموحدين ابن تومرت أسس دعوته على أساس أن المرابطين هم حملة لواء التجسيم، لا يؤمنون بالتأويل، ويمرون النصوص على ظاهرها، كما أقام منهجه على أساس فهم خاص للنص الشرعي، وبعد معالجة جوانب من حياة وتراث أعلام الدولة المرابطية تبين أنهم كانوا على مذهب السلف الصالح عموما ومالك خصوصا في اتباع السنة، وترك البدعة، وأنهم كانوا بعيدين غاية البعد عن التشبيه والتجسيم. فمنهجهم كان يقتضي الإيمان بالصفات الإلهية، مع عدم الخوض في كيفيتها، وترك المراد بها إلى الله تعالى، مع تنزيهه تعالى عن التشبيه والتجسيم والمماثلة والتعطيل، وكما رفض المرابطون تأويل آيات العقيدة، رفضوا أيضا العلم الذي أنتج التأويل ألا وهو علم الكلام. وأعطوا الأولوية بالمقابل لعلم الفقه الذي ازدهر على عهدهم .

أما الموحدون فقد أنكروا على المرابطين التزامهم بمنهج السلف، وعدولهم عن تأويل المتشابه من القرآن والحديث ووصموهم بالتجسيم، لاكتفائهم بالنص الظاهري دون تأويل للمتشابهات.

وفي المقابل اعتبروا التأويل وإعمال العقل للوصول إلى مفهوم الألوهية أساس الإيمان. وكما شن المرابطون حربا على علم الكلام، فقد شن الموحدون حربا لا هوادة فيها على علم الفروع، وشحذوا جميع الطاقات لتشجيع العلوم التأصيلية وعلى رأسها علم أصول الدين.

- الحواشي والإحالات:

1 عبد الله بن ياسين الجزولي من أهل الفضل والدين والورع، خرج مع يحيى بن إبراهيم لتعليم المرابطين أمور دينهم، ويعتبر الزعيم الروحي للدولة المرابطية. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ت: ولدي المؤلف الأستاذان: جعفر و محمد الناصري، د:الكتاب، الدار البيضاء، (ط:1/1954) (7/2)

2 الاستقصا للناصري (2/6-9)

3 المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، د:الكتب العلمية، بيروت،ط:1/1998 (ص:122)

4 العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، للعلامة ابن خلدون د: الكتاب اللبناني بيروت،دون تاريخ ولا رقم الطبعة (252/6)

5 الرسائل لابن حزم، ت: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980.(186/2)

6 ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، للقاضي عياض اليحصبي، ط: وزارة الأوقاف المغربية، مطبعة فضالة المحمدية.1982 .(183/3)

7- المعجب للمراكشي (ص: 147)

8- العبر لابن خلدون (246/1)

9-المعجب للمراكشي(ص:236-237)-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للإمام شمس الدين الذهبي، المكتبة الأحمدية،حلب. د:ت(3712/1)

10- النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون د: الكتاب اللبناني بيروت. ط: 3/ 1975 (ص:76)

11- تاريخ الإسلام للذهبي (3712/1)

12- المعجب للمراكشي (ص:253 – 254)

13- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، ألفرد بل، ترجمة: عبد الرحمان بدوي،د الغرب الإسلامي بيروت. ط:1/ 1981 (ص: 278)

14- أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني من أهل مدينة جيّان من جزيرة الأندلس، المعجب للمراكشي (ص: 252-253)

15- المعجب للمراكشي (ص: 252-253)

16- النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص:78)

17- أعز ما يطلب لمحمد بن تومرت، ت: عبد الغني أبو العزم، مطبعة وليلي مراكش. د،ت (ص:9) - أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي البيدق، طبع بالرباط1971م (ص:4)

18- هو موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي نسبة إلى غفجوم، فخد من قبيلة زناتة استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة علم، تفقه عن أبي الحسن القابسي، رحل إلى قرطبة فتفقه بها عند الأصيلي، ثم رحل إلى المشرق فحج ودخل العراق ودرس الأصول على القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني (ت403هـ.)/ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب للإمام برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المالكي د: الكتب العلمية، بيروت.د:ت (ص: 344-345)

19- العبر لابن خلدون(282/1)

20- النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص: 52)

21 - ذكره الإمام ابن عساكر في تبيين كذب المفتري واعتبره من شيوخ الأشاعرة في معرض حديثه عن شهادته في حق أبي طاهر البغدادي "وكان الفقيه أبو عمران يعني الفاسي رحمه الله يقول: لو كان علم الكلام طيلسانا ما تطيلس به إلا أبو طاهر البغدادي" تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري لابن عساكر،د: الكتاب العربي، بيروت،(ط 3/ 1404) (1/ 120)

22- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لابن الزيات، ت: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط(ط1/ 1984) (ص:87)

23- التشوف لابن الزيات (ص:87)

24- قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى لحسن أحمد محمود، د: الفكر العربي بيروت. ط:2/ 1996 (ص:106)

25- تاريخ الإسلام للذهبي (1 / 3235)

26 إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لعبد الرحمان بن زيدان، ت:عبد الهادي التازي طبعة وزارة الأوقاف والشؤون، الرباط.(ط2/ 1410ه) (88/1) - قيام دولة المرابطين لحسن أحمد محمود (ص:160)

27 العبر لابن خلدون (282/1) - تاريخ الإسلام للذهبي (351/1)

28 النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص:60)

29 الكامل في التاريخ لابن الأثير، ت: محمد يوسف الدقاق، د: الكتب العلمية، بيروت، 1987 (26/9)

30- ينصرف مدلول السلف إلى معنيين: أحدهما تاريخي وهو يشير إلى السلف الصالح من الصحابة والتابعين في الصدر الأول للإسلام، ثم أصبح مع التطور التاريخي لظهور الفرق الكلامية منحصرا في المدرسة السلفية التي حافظت على العقيدة طبقا لفهم الأوائل الذين نقلوه جيلا بعد جيل، وأبرز سماتهم هو التمسك بمنهج النقل، ولذلك عرفوا في البداية، كما يعرفون أيضا بأهل الأثر.

31- أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، صاحب أبى حنيفة وإمام أهل الرأي. أصله دمشقي من قرية حرستا، ولد بواسط، ونشأ بالكوفة، وسمع العلم بها من أبى حنيفة وسفيان الثوري، وروى عنه الشافعي و الجوزاني، وغيرهم.تاريخ بغداد لأحمد بن علي البغدادي، د:الكتب العلمية، بيروت (172/2)

32- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لهبة الله اللائكي، ت: أحمد بن سعد بن حمدان، د: طيبة الرياض. (ط:3/ 1415) (470/3)

33- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد البر، ت: مصطفى بن أحمد البكري ومحمد عبد الكبير العلوي، وزارة الأوقاف، الرباط، 1387ه (7/ 145)

34 - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مكتبة المعارف، الرباط. ط:1 د:ت (3/3)

35 - ينظر في هذا الإطار: دلائل التوحيد محمد جمال القاسمي، د: النفائس بيروت. ط:1/1991 (ص:12)، التأويل في التفسير بين المعتزلة والسنة د:السعيد شنوقة، المكتبة الأزهرية للتراث،القاهرة 2005م (ص: 31)

36 - مجموع الفتاوى لابن تيمية (29/5)

37- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د: علي سامي النشار د: المعارف، القاهرة. ط:س: 1996 (273/1)

38- أحاديث في ذم الكلام وأهله لأبي الفضل المقري ت: د.ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع د: أطلس للنشر والتوزيع، الرياض.ط:1/1996 (79/5)

39- تحريم النظر في كتب الكلام، لابن قدامة المقدسي. ت: عبد الرحمن دمشقية د: عالم المكتب، الرياض.ط:1/ 1990(ص:71)، الاعتصام للشاطبي ضبط وتصحيح: أحمد عبد الشافي، د: الكتب العلمية بيروت. ط: 2/ 1981 (ص: 526)

40 - نقله عنه الشاطبي في الاعتصام (ص: 526)

41- ترتيب المدارك للقاضي عياض (ص30)

42- أخرج أبو نعيم عن جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه/5] كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته فنظر إلى الأرض، ثم رفع رأسه ورمى بالعود.وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة،

وأظنك صاحب بدعة، وأمر به فأخرج. "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، د: الكتاب العربي، بيروت. ط:4/ 1405 (6/ 325)

[43]- الملل والنحل للشهرستاني ت: محمد سيد كيلاني، د:المعرفة، بيروت. ط:1/ 1404هـ (1/ 91)

44 أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت، ولد سنة485 هـ في ضيعة من بلاد سوس تعرف بإيجيليز، وكان أبوه أمغار القبيلة أي شيخها، كان يدعي أنه حسني علوي وهو من جبل السوس في أقصى المغرب. حفظ القرآن في صغره، ثم رحل إلى المشرق لطلب العلم. لقي أبا حامد الغزالي، والكيا أبا الحسن الهراسي، وأبا بكر الطرطوشي. وبعد مرور أحد عشر سنة عاد إلى المغرب عاقدا العزم على تغيير الأوضاع. تاريخ الإسلام للذهبي(1/362)

45 المعجب للمراكشي (ص: 136)

46 المعجب للمراكشي (ص: 146- 168)

47 الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري (2/ 226)

48- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي. د: الغرب الإسلامي بيروت. ط:1/ 1985 (ص: 151)

49- البيان المغرب لابن عذاري (ص: 230)

50- أعزما يطلب لابن تومرت (ص: 273)

51- أعزما يطلب لابن تومرت (ص:277)

52- تاريخ الإسلام للذهبي (1/ 3892)

53- النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص: 130)

54- التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، تأليف: أميرو سيوهويثي ميراندا،ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن، الدار البيضاء. ط:1/ 2004 (ص: 39)

55- الحركة الثقافية في العصر الموحدي لعبد الهادي احسيسن، من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان 1993. (ص:410)

56 الاستقصا للناصري (2/ 126)

57- المعجب للمراكشي (ص: 402)

58- الاستقصا للناصري (2 /126)

59- النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص: 129)

60- النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص:130)

61- المعجب للمراكشي (ص: 188)

62- العبر لابن خلدون (1/ 247)

63- هامش المن بالإمامة: تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين لابن صاحب الصلاة، ت: عبد الهادي التازي د: الغرب الإسلامي بيروت، ط:3/ 1988 (ص: 160-161) - الاستقصا للناصري (2/ 73)

64- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ت: محمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة. د:ت (5/ 70)

65- النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص: 108)

66- النبوغ المغربي لعبد الله كنون (ص:235)

67- المهدي بن تومرت لعبد المجيد النجار (ص: 202)
68- أعز ما يطلب لابن تومرت (ص:233)
69- أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها. في كتاب الصلاة. باب: ما يقال في الركوع والسجود، رقم: 482 (352/1)
70- أعز ما يطلب لابن تومرت (ص:215)
71- أعز ما يطلب لابن تومرت (ص: 233)
72 - أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها كتاب التفسير، باب: سورة آل عمران ﴿ **منه آيات محكمات**﴾ رقم:4273 (1655/4)
73 - المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، لعبد المجيد عمر النجار، د: الغرب الإسلامي بيروت (ط:س:1983) (ص:357)
74 - المهدي بن تومرت لعبد المجيد النجار (ص: 180)
75 - المهدي بن تومرت لعبد المجيد النجار (ص: 165)
76 - أعز ما يطلب لابن تومرت (ص: 187).

Verses of qualities Between proof of Almorabitine and the interpretation of the Almowahidine

By: Dr. Abderrahim Mofoq
Sidi Mohamed Bin Abdallah University, Fas, Sayes.

Abstract:

This study set out to explore one of the aspects of the conflict that erupted between the two states: Almowahidin and Almorabitin and its relevance to the issue of interpreting text narratives. The Almowahidin questioned the commitment of the Almorabitin to the approach of the pious predecessors, and raised concerns over their rejection of interpreting verses of the Qur'an and texts of the Hadith that share resemblance. They even accused them of anthropomorphism as they relied on interpreting superficial meaning of texts. In turn, they considered that the interpretation and the realization of the mind to reach the concept of divinity are the basis of faith. While the Almorabitin leveled great criticism against theology, the Almowahidin launched an uncompromising war against branches of Jurisprudence. They spared no effort in encouraging Islamic fundamentalism, particularly the fundamentals of religion. Based on what has been said, this study sets to out examine the approach adopted by the two states in dealing with the issue of interpretation and explore the methodological frameworks that shaped their choices.

Keywords: Interpretation ; Attributes of God ; Almorabitin ; Almowahidin ; anthropomorphism.